

الهرم وشكوى الدهر (الشيب والشيخوخة في الشعر الجاهلي)

حمدي منصور *

ملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة الهرم وشكوى الدهر (الشيب والشيخوخة) في الشعر الجاهلي، وموقف الشاعر الجاهلي منهما، ولبيان ذلك جاء البحث في تمهيد وخمسة مفردات أساسية، هي: التحسر على الشباب المنصرم، وموقف الشاعر من نفور الزوجة وازورار الحسان عنه، وموقفه من الضعف العام والوهن المقعد، وموقفه من إقصاء الأهل له وعزلتهم إياه. وأخيراً تيقنه من استحالة الخلود وتمنيه الموت لأنه وجد فيه سبيل الخلاص. وقد استطاع الشاعر الجاهلي أن يعبر عن هذا كله في أشعاره، بصدق بالغ وعاطفة متقدة، فجاءت أشعاره صورة صادقة معبرة عن معاناته.

الكلمات الدالة: الهرم، الشيب، الشعر الجاهلي.

تمهيد

البكاء على الشباب⁽⁶⁾، فلا أحد يحب الشيب لأنه زحف نحو الهرم والشيخوخة، ففر الشعراء منه وقابلوه بالتململ والضجر⁽⁷⁾ فهو (عنوان الفساد)⁽⁸⁾ ونذير بتقدم السن ومضي العمر، وتذكير بأيام الشباب الزاهية، فهو وإن لم يكن نذيراً للموت فهو يدني صاحبه منه، ويذكره بقرب أجله المحتوم، كما أنه ذهب بالشباب الذي (لا ارتجاع له)⁽⁹⁾ وأحمد ضوء الشباب الثاقب⁽¹⁰⁾، (والشيب شين لمن أمسى بساحته)⁽¹¹⁾ يترك المرء وهو (ضعيف القيام منكسر)⁽¹²⁾ بل هو كما قال ساعدة بن جؤية (داء نجيس لا دواء له)⁽¹³⁾ فلا مفر للإنسان منه، ولا منجاة له من سطوته، فهو يخلق الشباب ويخلفه ويذهب بميعة، ولذا أكثر الشعراء من ذمه⁽¹⁴⁾، ويروى أنه قيل: (ما بال شعركم في الشيب أحسن أشعاركم في سائر أقوالكم؟ قالوا: لأننا نقوله وقلوبنا فرحة)⁽¹⁵⁾ فالقلوب تتحرق تحسراً على ماضي حميد، وتألما من حاضر مقيت، يقول امرؤ القيس⁽¹⁶⁾:

فَوَا عَجَبًا، مَا قَدْ عَجِبْتُ مِنَ الْفَتَى

تُبِدُّ لَهُ الْأَيَّامُ وَالْدَّهْرُ أَعْصُرَا

فَإِنْ يُمْسِ يَوْمًا ذَا شَبَابٍ فَإِنَّهَا

سَتُخْلِفُهُ شَيْبًا وَخَلَقًا مُحَسَّرَا

وَلَوْ خَيْرَ اللَّوْنَيْنِ أُيْهِمَا لَهُ

لَقَالَ سِوَى هَذَا، وَلَوْ كَانَ أَزْهَرَا

أما الهرم (الشيخوخة)، فقد أذهبت القوى، وأضعفت البنية، وذهبت بكل ما هو جميل، فالمرء فيها أقرب⁽¹⁾ إلى الاكتئاب

أكثر الشعراء الجاهليون من الحديث عن الهرم وشكوى الدهر (الشيب والشيخوخة) في أشعارهم، وذكرهما في قصائدهم ومقطعاتهم، ونادرا ما يخلو ديوان شاعر جاهلي من الحديث عن الشيب أو الإشارة إليه، سواء أكان ذلك يمثل معاناة حقيقية بالغة لصاحبه، أم مجرد افتتاح تقليدي يلجأ إليه الشاعر في بعض قصائده⁽¹⁾ أم موضوع حوار في بعض لوحات أشعاره. على أن الشاعر الجاهلي لم يكن راضيا عن هذا الضيف الثقيل الظل، أو هذه المرحلة الواهنة من العمر فالشيخوخة والهرم زائر ثقيل لا يترك صاحبه حتى يحل محله زائر الموت⁽²⁾ والشعراء الجاهليون كانوا أكثر الناس شعورا بقسوة الزمن وإحساسا بسطوة الدهر (كما كانوا أكثر قدرة على التعبير الصادق عن رؤيتهم الحقيقية للحياة وما يبعثه الزمن الضيق في نفوسهم من أحاسيس وانفعالات)⁽³⁾ ولذا أكثر الشعراء من البكاء على الشباب المنصرم، ولا غرابة في ذلك (لبكاء الشباب ظاهرة إنسانية تتصل بالنفوس في أخص خصائصها)⁽⁴⁾ قال يونس النحوي: (ما بكت العرب على شيء بكاءها على شبابها، وما بلغت ما يستحق)⁽⁵⁾.

وذهب الأصمعي إلى أن (أحسن أنماط الشعر في المرثي

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، الجامعة الأردنية. تاريخ استلام البحث 2012/3/13، وتاريخ قبوله 2012/11/11.

لَا تَعْبُطُ الْمَرْءَ أَنْ يُقَالَ لَهُ
أَمْسَى فَلَانَ لَعْنَرِهِ حَكَمًا
إِنْ سَرَّهُ طُولُ عَيْشِهِ فَلَقَدْ

أَضْحَى عَلَى الْوَجْهِ طُولُ مَا سَلِمًا
وأمام هذا الواقع البئيس، والبياض المقيت، يكثر الشعراء
الجاهليون من التحسر على شبابهم الحميد، ومتعه وملذاته التي
تتجلى في ثلاثيتهم المحببة وهي: المرأة والخمرة والفتوة، فهم
يعدون الشباب خلاصة العمر وزهوه، ويحرصون على إيراد
صور حافلة بمسراته وأفراحه (25) ولذا فهم يحسون بالأسى
والحزن عندما يشعرون بتسرب الشباب وانقضاء عهد الفتوة. (26)
يقول سلامة بن جندل السعدي (27):

أودى الشباب حميداً ذو التعاجيب
أودى وذلك شأق غير مطلوب
ولى حثيثاً وهذا الشيب يطلبه
لو كان يدركه ركض العاقب
أودى الشباب الذي مجد عواقبه
فيه نلذ، ولا لذات للشيب
وللسباب إذا دامت بشاشته

وُدُّ الْقُلُوبِ مِنَ الْبَيْضِ الرَّعَابِيبِ
وذلك الشباب الذي بات ليس له مردود، ولا يستطيع أحد
إعادته فقد مضى زمنه، وذهبت معه أيام الهناء والسعادة،
والفعال الحميدة، وهذا الشيب يزداد حضوراً بتقدم السن وممر
الأيام، ولذا لا يملك الشاعر الجاهلي إلا التحسر على ماضيه،
والبكاء على خواليه، فيظهر من الأسى أعمقه، ومن الألم
أشدّه، لفرق الشباب، الذي أسرع الخطى مؤذناً بالرحيل، غير
مكترت لجزع الشاعر الذي أدرك أن هذا الفراق لا لقاء بعده،
وأن الشباب لا رجعة له. يقول عدي بن زيد (28):

بَانَ الشَّبَابُ فَمَا لَهُ مَرْدُودُ
وَعَلَى مِنْ سِمَةِ الْكَبِيرِ شُهُودُ
شَيْبٌ بِرَأْسِي وَاضِحٌ أَعْقَبْتُهُ
مَنْ بَعْدَ آخِرِ بَانَ وَهُوَ حَمِيدُ
وَأرى سَوَادَ الرَّأْسِ يُنْقِصُهُ الْبَلَى
وَالشَّيْبُ عَن طُولِ الْحَيَاةِ يَزِيدُ
وَلَقَدْ بَكَيْتُ عَلَى الشَّبَابِ لَوْ أَنَّهُ
كَانَ الْبُكَاءُ بِهِ عَلَيَّ يَعُودُ
لَيْسَ الشَّبَابُ وَإِنْ جَزَعْتَ بَرَاجِعُ
أبداً، وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْكَ مُعِيدُ

و كثيرا ما يبكي الشعراء الشباب المولي، ويشكون انقضاءه
شكوى حارة مؤلمة، فهذا سعنة بن سلامة الكلبي يألم لما آل
إليه حاله، وصار إليه شأنه، فقد كان سيدا في قومه، مطاعاً
بن قميئة (24):

والأسى منه إلى الفرح والأمل، وأدنى إلى الضعف والعجز منه
إلى القوة والافتقار (17) فهي خطاب المنية (18) ومطية الأجل
وتمهيد للحمام (19)، فيها ينحل الجسم ويثقل السمع ويكَلِّ
البصر، وتقترب الخطى، ويدق العظم، وينحني الظهر، ويمر
كل حلو، كما يقول ذو الإصبع العدوانى بمرارة بالغه (20).

أَصْبَحْتُ شَيْخاً أَرَى الشَّخْصَيْنِ أَرْبَعَةً
وَالشَّخْصَ شَخْصَيْنِ لَمَّا مَسَّنِي الْكِبَرُ
لَا أَسْمَعُ الصَّوْتِ حَتَّى أَسْتَدِيرُ لَهُ
لَيْلًا وَإِنْ هُوَ نَاعَانِي بِهِ الْقَمَرُ
وَكُنْتُ أَمْشِي عَلَى الرَّجُلَيْنِ مُعْتَدِلًا
فَصِرْتُ أَمْشِي عَلَى مَا تَنْبُتُ الشَّجَرُ
إِذَا أَقْوَمُ عَجَنْتُ الْأَرْضَ مَتَكِّبًا
عَلَى الْبَرَاجِمِ حَتَّى يَذْهَبَ النَّصْرُ
ويمكن أن نتعرف إلى موقف الشاعر الجاهلي من الهرم
وشكوى الدهر (الشيب والشيوخة) في ضوء المفردات الآتية:
التحسر على الشباب المنصرم:

يحس الشاعر الجاهلي بمرارة قاتلة، وحسرة شديدة على أيام
شبابه المنصرم، لأنه يرى فيه لزوة الحياة، ففيه تتفجر قوى
الجسد، وتتأجج المشاعر والأحاسيس ويمور الجسم كله بعنفوان
الفتوة وحيويتها (21) كما يشعر بعجز شديد حيال هذا الضيف
البيغض الذي عجزت كل الوسائل عن دفع غوائله، ومقاومة
مقدمه، يقول عدي بن زيد (22):

نَزَلَ الْمَشَيْبُ بِوُفْدِهِ لَا مَرْحَبًا
وَرَأَى الشَّبَابُ مَكَانَهُ فَتَجَنَّبَا
ضَيْفٌ بَغِيضٌ لَا أَرَى لِي عُصْرَةَ
مِنْهُ هَرَبْتُ، فَلَمْ أَجِدْ لِي مَهْرَبَا
بُدَلْتُ بِالْغَيْشِ اللَّذِيذِ وَنِعْمَةَ ال
عُمُرَيْنِ هَمًّا شَاهِدًا وَمُعْيَبَا
وَلَقَدْ يُصَاحِبُنِي الشَّبَابُ فَلَمْ أَكُنْ
آتِي بِهِ إِلَّا الْفِعَالِ الْأَصْوَبَا
وَلَقَدْ حَفِظْتُ مَكَانَهُ وَرَعَيْتُهُ

وَجَعَلْتُهُ مِنِّي الْأَحَبَّ الْأَقْرَبَا
فلا شك أن الشيب قادم مخيف ورائر مقيت، ومقيم مكروه،
لكن لا مهرب منه ولا منجاة منه، ولا يملك المرء أمامه إلا
التسليم والخضوع، وهو لا يحمل إلا الشر، ولا يبشر إلا بالشؤم:
وَأَبْيَضَاضُ السَّوَادِ مِنْ نُذْرِ الشَّ
رِّ وَهَلْ بَعْدَهُ لِأَنْسِي نَذِيرُ (23)

ولا يتمكن المرء بامتداد عمره وطول أجله من كبح جماحه،
والإمسك بزمامه، فلا سرور بطول العمر معه كما قال عمرو
بن قميئة (24):

يقول⁽³³⁾:

هَلْ الْأَدْمُ كَالْأَرَامِ وَالزُّهْرُ كَالدَّمِي

مُعَاوَدَتِي أَيَّامَهُنَّ الصَّوَالِحُ

زَمَانَ سِلَاحِي بَيْنَهُنَّ شَبِيبَتِي

لَهَا سَائِفٌ فِي سَبِيبُهُنَّ وَرَامِحُ

فَأَقْسَمَنْ لَا يَسْقِينَنِي قَطْرَ مُرْنَةٍ

لِشَبِيبِي وَلَوْ سَأَلْتُ بِهِنَّ الْأَبَاطِحُ

ويرى مجمع بن صلال وقد عمر مئة وتسع عشرة سنة أنها انقضت كالخيال، ومرت كالبرق، لأن العيش الحقيقي هو فترة الشباب وأيام المتعة واللذة، أما ما خلا ذلك وإن طال فلا يعد من عمر الإنسان، ولا يحتسب من سني حياته، فلم يبق للشاعر من تلك المتع إلا الذكريات، ذكريات لهوه مع الأوانس والشباب، وقوته في قيادة الأبطال الشجعان. يقول⁽³⁴⁾:

إِنْ أَمْسِي شَيْخًا قَدْ بَلَيْتُ فَطَالَمَا

عَمِرْتُ، وَلَكِنْ لَا أَرَى الْعَيْشَ يَنْفَعُ

مَضَتْ مَنَّةٌ مِنْ مَوْلَدِي فَنَضَيْتُهَا

وَعَشْرٌ وَخَمْسٌ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَرْبَعُ

فَيَا رَبِّ خَيْلٍ كَالْقَطَا قَدْ وَرَعَتْهَا

لَهَا سَبِيلٌ فِيهِ الْمَنِيَّةُ تَلْمَعُ

شَهْدَتْ وَغَنَمٌ قَدْ حَوَيْتُ وَلِدَّةٌ

أَصَبْتُ، وَمَا ذَا الْعَيْشُ إِلَّا تَمَتُّعُ

أما دريد بن الصمة فيؤكد رفضه للشيخوخة وحرصه على الحياة، وقدرته على مواجهة معضلاتها وصعوباتها، فنلمح رسيماً خفياً يشعرننا بحرصه على الهرب من الشعور بالضعف والوهن، وإصراراً على الحيوية والقدرة، مجلياً ذلك في همته العالية، وفؤاده الصلب، وماضيه المجيد، يقول⁽³⁵⁾:

يَا هِنْدُ لَا تُتَكِرِي شَبِيبِي وَلَا كِبْرِي

فَهَمَّتِي مِثْلُ حَدِّ الصَّارِمِ الذَّكْرِ

وَلِي جَنَانٌ شَدِيدٌ لَوْ لَقِيتُ بِهِ

حَوَادِثَ الدَّهْرِ مَا جَاءَتْ عَلَى بَشْرِ

فَمَا تَوَهَّمْتُ أَنِّي خُضْتُ مَعْرَكَةً

إِلَّا تَرَكْتُ الدِّمَاءَ تَنْهَلُ كَالْمَطَرِ

كَمْ قَدْ عَرَكْتُ مَعَ الْأَيَّامِ نَائِبَةً

حَتَّى عَرَفْتُ الْقَضَا الْجَارِي مَعَ الْقَدْرِ

لعمرى إنها الفروسية التي تأبى أن تنهزم أو تستسلم إلا لقدرها.

ويبدو أن وتيرة الصراع النفسي تحدثم في نفس الشاعر كهمس الدوسي وتعلو وتبهرته فيلوذ بماضيه الحميد، الذي كان فيه بطلا مغوارا، وفارسا مقداما، يصبر للشدائد وينفس الكرب، ويجب المستغيث، كما كان يقبل على المتع ويلتهم المذاذات،

في أهله، لكن صروف الدهر ونوازلها، ومرّ الأيام وتعاقب الليالي بدلت الأحوال، فقد أبلاه الزمن الذي لا يبقى جديداً، فلا يملك إلا الذكريات يلوذ بها عله يخفف من حدة انكسار نفسه يقول⁽²⁹⁾:

لَقَدْ عَمِرْتُ زَمَانًا مَا يُخَالِفُنِي

قَوْمِي، إِذَا قُلْتُ جِدَّوَا سَيْرُكُمْ: سَارُوا

وَإِنْ أَرَدْتُ مَقَامًا قَالُوا قَائِلُهُمْ

يَا سَعْنَةَ الْخَيْرِ: قَدْ قَرَّتْ بِنَا الدَّارُ

فَإِنْ بَلَيْتُ لَقَدْ طَالَتْ سَلَامَتُنَا

وَالدَّهْرُ قَدِمًا لَهُ صَوْرَتٌ وَإِمَارُ

ويتحسر عمرو بن قميئة كما يقول المرزوقي⁽³⁰⁾ (على ما فات من الشباب وحسن أيامه ونضارة العيش به، فقال يا حسرة نفسي على مقتضى الشباب ومتولييه، فإن ما فاتني منه لم أفارق به أمراً قريبا، وشيئا هينا، لكنني فقدت به صحة بدني وروعة وجهي، وطيب عيشي وقوة روحي) فالشاعر يتلطف متحرقا على ضياع أيام شبابه الزاهية، فقد أصابه بفقدتها خطب عظيم، وحدث جلال، تجليا في ذهاب عافية البدن، ونضرة الوجه، ولذاذة العيش. يقول عمرو بن قميئة⁽³¹⁾:

يَا لَهْفٌ نَفْسِي عَلَى الشَّبَابِ وَلَمْ

أَقْفِدْ بِهِ إِذْ فَدَدْتُهُ أَمَمًا

قَدْ كُنْتُ فِي مَيْعَةٍ أُسْرُ بِهَا

أَمْنَعُ ضَيْمِي، وَأَهْبُطُ الْعُصْمَا

وَأَسْحَبُ الرِّيْطَ وَالْبِرُودَ إِلَى

أَدْنَى تَجَارِي، وَأَنْفُضُ اللَّمَمَا

وتنقل الأيام كاهل عبد الله بن سبيع الحميري، فلا يقوى على رفض الهرم والشيخوخة ومقاومة الزمن، فكل يوم جديد يحمل له عبئا ثقيلا، فإذا كان هو يبلى ويهرم، فإن الأيام تتوالى وتتجدد وتخلق كل قوي شديد، فشبابه ولى ولن يووب، وشباب الأيام يتجدد كل يوم ويعود. يقول⁽³²⁾:

أَرَانِي كُلَّمَا هَرَمْتُ يَوْمًا

أَتَى بَعْدَهُ يَوْمٌ جَدِيدُ

يَعُودُ شَبَابُهُ فِي كُلِّ فَجْرٍ

وَيَأْبَى لِي شَبَابِي لَا يَعُودُ

أما قيس بن الحدادية، الذي يمثل الهرم والشيخوخة جرحا عميقا في داخل نفسه، فيفرغ همه على شبابه المندثر، وحزنه على أيامه الخوالي، في أثناء حواراه مع الأوانس الحسان، اللواتي بتن يرين فيه شيئا هروما، لذا فقد صددن عنه وانقطعن عن وصله، فقد غدا لا نفع فيه ولا فائدة ترتجى منه، فهو لا يستحق قطرة ماء في عرفهن، فلم يبق له من تلك المتع إلا الذكريات، ذكريات له مع الغواني الجميلات أيام فتوة الشباب.

وإذ بهذا كله يذهب كأن لم يكن، فلا يملك الشاعر إلا الحسرة والأسى ينفثهما من صدر مكلوم ونفس جريح، يقول⁽³⁶⁾:

أَلَا رَبُّ نَهَبٍ يَخْطُرُ الْمَوْتَ دُونَهُ

حَوَيْتُ وَقِرْنَ قَدْ تَرَكْتُ مُجَدَّلاً

وخيَلٍ كَأَسْرَابِ الْقَطَا قَدْ وَزَعَتْهَا

بِخَيْلٍ تُسَاقِيهَا ثَمَالاً مِثْمَالاً

وَلَدَاتٍ عَيْشٍ قَدْ لَقِيَتْ وَشِدَّةً

صَبِرْتُ لَهَا جَاشِي وَلَمْ أَكْ أَعَزَّلاً

وَمُسْتَلْحِمٍ فِيهِ الْأَسِنَّةُ شَرَعٌ

دَعَانِي حَذَاراً أَنْ يُصَابَ وَيُقْتَلَ

سَعَيْتُ إِلَيْهِ سَعْيٍ لَا وَهْنِ الْقَوَى

وَلَا عَاجِزٍ لَا يَسْتَطِيعُ التَّحَلُّلاً

فَنَفَسْتُ عَنْهُ الْخَيْلَ وَأَنْتَشْتُ نَفْسَهُ

وَقَدْ عَايَنَ الْأَبْطَالَ أَخْوَلَ أَخْوَلَ

وقريب من هذا ما نجده عند سمعان بن هبيرة الأسدي، الذي عاد (كفرخ النسر) بعد أن كان أيام الشباب يمتلأ فتوة وقوة، ينال الفرسان، ويهزم الأقران، ويتأبى على الأنداد والأقوياء، أما وقد مضى زمان الشباب، بما فيه من قوة وحيوية، ومجد وسؤدد، فحق لشاعرنا أن يأسى لذلك ويتحسر على زمن لا سبيل لارتجاعه، يقول⁽³⁷⁾:

وَحَيْلٍ دَعَنْتِي لِلنَّزَالِ أَجْبَبْتُهَا

وَفِي الْكَفِّ مَنِي مَشْرِفِي مُذَكَّرٌ

وَتَحْتِي طِمْرٌ مُسْتَظَارٌ فُؤَادُهُ

سَلِيمٌ الشَّظَا نَهْدٌ كَمَيْتٌ مُضَمَّرٌ

فَنَازَلْتُ إِذْ نَادُوا نَزَالَ، وَنَلْتُ مَا

يُنَالُ الْكَرِيمُ الْأَحْوَذِيُّ الْمُشَمَّرُ

فَذَلِكَ دَهْرٌ قَدْ مَضَى حُلُو عَيْشِهِ

وَغَادِرِي شِلْوَا لِي الذَّنْبُ يَكْثُرُ

وَقَدْ كُنْتُ أَبَاءَ عَلَى الْقِرْنِ مَرْجَمًا

أَجُودٌ وَأَحْمِي الْمُسْنَقَاتِ وَأَحْبُرُ

فالشاعر يتحسر على ذلك الزمان الذي مضى حلو عيشه، زمن الشباب والفتوة الذي يعني الحياة ببهجتها ومتعتها، والإقبال عليها والمبالغة في اقتناص الملذات، أما وقد أصبح كفرخ النسر عجزاً ووعالة على غيره فما قيمة الحياة وما لذتها؟ ويبقى التغني بأيام الشباب الماضية، والبطولات الخالدة، وما كان عليه الشاعر في سالف أيامه، العزاء الذي يلجأ إليه ليخفف من حدة الهرم (الشيخوخة) وانكساره فيها، فهو يفر إلى ذلك الماضي يستلهم منه ما يمكن أن يعيد إليه توازنه في هذا الحاضر البئيس الذي أتى على كل شيء فيه، فهو لا يفتأ عن تذكره واسترجاعه، يقول عباد الصيداوي⁽³⁸⁾:

عَمِرْتُ، فَلَمَّا جَزْتُ سِتِينَ حُجَّةً

وَسِتِينَ قَالَ النَّاسُ: أَنْتَ مُفَنَّدٌ

وَإِنِّي جَوَادُ الْكَفِّ سَمَحَ بِمَا حَوْتُ

يَدَايَ مِنَ الْمَعْرُوفِ لَا أَتَلَدُّ

أَجُودٌ وَأَحْمِي الْمُسْتَجِيرَ مِنَ الرَّدَى

إِذَا عَرَدَ النَّكَيْسُ الْأَحْمُ الْأَلْتَدُّ

وَيَوْمًا تَرَى الْأَبْطَالَ مِنْ حَوْفِ شَرِّهِ

سُكَارَى، عَلَيْهِمْ غَيْبَةٌ تَتَرَدُّ

شَهْدَتْ فَجَأَيْتُ الْبَلَايَا وَأَوْقَهَا

بِأَسْمَرَ نَحْوِ الْمُبْتَعِي الشَّرِّ يَقْصُدُ

وإذا كان بطلا مغورا في ساحة القتال، يفرج الكرب، وينفس الخيل، أيام الشباب والفتوة فقد كان كذلك بطلا جوادا، كريما معطاء، لا يبخل على صحبه وينفق ما يملك على الندامى في مجلس شربه:

وَزِقٍ كَمُسْتَدْمِي الْعَزَالِ سَبَائُهُ

لَفَتِيَانِ صِدْقٍ رَفْدُهُمْ لَيْسَ يَنْفَدُ

فَقُلْتُ لَهُمْ عَلُوا وَتِلْكَ مَطْيَبِي

بِكَفِّي عَضْبٌ مَشْرِفِي مُهْدُ

فَقَادَتْ وَقَامَ الطَّاهِيَانِ فَأَوْقَدَا

بِعَلِيَاءِ نَارًا حَمَّهَا لَيْسَ يَبْرُدُ

فَلَمَّا اسْتَفَوْا مِنْهَا وَأَدْبَرَ وَحْشُهُمْ

صَبَبْتُ لَهُمْ صَهْبَاءَ فِي الْكَأْسِ تَرَبُّدُ

وَقُلْتُ لَهُمْ إِنِّي حَمِيلٌ بِمِثْلِ مَا

رَأَيْتُمْ طِوَالَ الدَّهْرِ لَا أَتَزِيدُ

ويتحسر الأسود بن يعفر النهشلي على شبابه الذاهب، ويتمنى لو أن عصر الشباب دائم لا ينقضي، لكن لا جدوى من البكاء ولا فائدة من الأمانى، فما هذا إلا ضرب من الأضاليل والأوهام، فعودة الشباب مستحيلة، وما على المرء إلا التسليم لقدره، فالإحساس بالزمن يقود إلى الشعور بأن المرء مقيد به، يقول⁽³⁹⁾:

هَلْ لِسِبَابِ فَاتٍ مِنْ مَطْلَبٍ

أَمْ مَا بُكَاءِ الْبَائِسِ الْأَشْيَبِ

إِلَّا الْأَضَالِيلَ وَمَنْ لَا يَتَزَلُّ

يُوفِي عَلَى مَهْلِكِهِ يَغْضَبُ

بَدَلَتْ شَيْبًا قَدْ عَلَا لِمَتِي

بَعْدَ شِبَابٍ حَسَنٍ مُعْجَبٍ

صَاحِبْتُهُ ثَمَّتْ فَارْقَتُهُ

لَيْتَ شَبَابِي ذَاكَ لَمْ يَذْهَبِ

وَقَدْ أَرَانِي وَالْبَلَى كَاسِمِهِ

إِذْ أَنَا لَمْ أَصْنَعْ وَلَمْ أَحْدَبِ

قليل الطعام عسير القيا

م قد ترك القيد خطوي قصيرا

أبيت أراعي نجوم السماء

أقلب أمري بطونا ظهورا

فإذا ما حل البياض وارتحل السواد، أصبح أمراً يثير الاستغراب والسؤال، على نحو ما صنعت عميرة بنت أعصر حين استكرت بياض رأس أبيها، فرد عليها أن ذلك فعل الزمن، يقول (44):

قالت عميرة: ما لرأسك بعد ما

نفذ الشباب أتى بلون منكر

أعمير إن أباك غير نونه

مر الليالي واختلاف الأغصن

وقد يلجأ الشاعر إلى الحيلة لإخفاء الشيب، فيختضب، لكن أنى له أن يحتال على مر الزمان، وأثر كَرَّ الأعوام التي أخذت الشباب وسواده، وأنت بالشيب وبياضه، يقول المرقش الأكبر (45):

هل يرجع لي لمتي إن خضبته

إلى عهدا قبل المشيب خضابها

رأت أقحوان الشيب فوق خطيطة

إذا مطرت لم يستكن صوابها

فإن يظعن الشيب الشباب فقد ترى

به لمتي لم يرم عنها غرابها

نفور الزوجة وزورار الحسان:

تسخر الزوجة من الشاعر إذا تقدمت سنيته وسقطت سنه، فهزم وشاخ وانحنى ظهره، ودقَّ عظمه، ووهت قوته، وهو ينكر عليها سخرتها هذه، إذ لا غرابة فيما آل إليه، فقد تعاقبت عليه السنون، وتلاحقت الأيام، وهذا شأن الزمان، لا يقوى على الوقوف في وجهه أحد، ولا بد أن يترك مياسه على الإنسان، يقول سلمى بن غوية الضبي (46):

هزنت زنيبة أن رأيت ثرمي

وأن انحنى لتقادم ظهري

من بعد ما عهدت فأدلفني

يوم يجئ وليلة تأسري

حتى كأنني خاتل قنصاً

والمزء بعد تمامه يخري

لا تهزني مني زنيب فما

في ذلك من عجب ولا سخر

فالشاعر يقابل زورار زوجه ونفورها منه، بشيء من الحكمة والأدب، مبينا لها أن كل شيء إلى نهاية.

وقد يحن الشاعر إلى المرأة وهو في مثل هذا السن، قد

لقد ذهب شبابه سريعاً، وحل الشيب مكانه، ويا حسرة على أيام الشباب الجميلة، كيف انقضت على عجل! ولم تخلف سوى الندم والأسى، فلسان حاله يقول (40):

أجد الشباب قد مضى فتنسرعاً

وبان كما بان الخليط فودعاً

و ما كان مذموماً لدينا ثناؤه

وصحبتنا ما لفنا خلط معاً

فبان وحل الشيب في رسم داره

كما خف فرحنا هض فترفعاً

فهذا الشباب سرعان ما يرتحل ليترك في النفس حسرة كاوية، وشكوى مريرة، يقول الربيع بن ضبيع الفزاري (41):

أصبح مني الشباب قد حسرا

إن ينأ عني فقد ثوى عصرا

ودعنا قبل أن نودعه

لما قضى من جماعنا الوطرا

ولأن الشباب سرعان ما يرتحل، ليحل مكانه الشيب المقيت، فالشاعر يندفع بقوة للتعويض عن فقدان الشباب، من خلال تمسكه بقيم عليا، ومثل رفيعة تجد هوى في مجتمعه، يقول مالك بن حريم في قصيدته التي مطلعها: (42)

جرعت، ولم تجزع، من الشيب مجزعا

وقد فات ربي الشباب فودعا

يقول:

فإن يك شاب الرأس مني فانتني

أبيت على نفسي مناقب أربعا

فواحدة: أن لا أبيت بغيره

إذا ما سوام الحي حولى تصوعا

وثانية: أن لا أصمت كلبنا

إذا نزل الأضياف حرصاً لنودعا

وثالثة: أن لا نقذع جازي

إذا كان جار القوم فيهم مقدعا

ورابعة: أن لا أحجل قدرنا

على لحمها حين الشتاء لنشبعنا

والشاعر يصور ما مر به من العمر بالطعام الذي يقات عليه، فهذا الحارث بن كعب، قد التهم شبابه بأيامه وشهوره وأعوامه، وعاصر ثلاثة أجيال من قومه، فكان أن قيده الزمن، يقول (43):

أكلت شبابي فأفنيته

وأفنيته بعد شهور شهورا

ثلاثة أهلين صاحبتهم

فبانوا وأصبحت شيخاً كبيراً

وإن أكبر فلا بأطير أصر

يفارق عاتقي ذكر حشيب

زوج عبيد بن الأبرص تهب ليلاً مولولة شاكية، تمط حاجبيها، وتغلظ له في القول، وتتكبر عليه حاله، وأظن أن ذلك ما كان إلا لما لمستته فيه من ضعف وعجز جنسي، فغاب التكافؤ بينهما في هذه المرحلة من العمر، فكانت شكاواها هذه قد أصابته في فحولته ورجولته وأحدثت في كبريائه جرحاً غائراً، بصراحتها القاسية، وهو يعلم صدقها فيما تقول، فما كان منه حفاظاً على كرامته المجروحة، إلا أن خيرها بين الإقامة معه وبين الطلاق منه، يقول(52):

ألا عتبت علي اليوم عرسي

وقد هبت بليل تشتكيني

فقلت لي: كبرت، فقلت: حقاً

لقد أخلفت حيناً بعد حين

تريني آية الإعراض منها

وفظت في المقالة بعد لين

ومطت حاجبيها أن رأيتي

كبرت، وأن قد ابيضت قرؤني

فقلت لها: رويدك بغض عتبي

فإنسي لا أرى أن تزدهيني

وعيشي بالذي يُغنيك، حتى

إذا ما شئت أن تنأي فبيني

وتصرم زوج ربيعة بن مكرم الضبي حبل وصله، وتقطع طيب وده، وتأبى الإقامة معه، فقد غدا شيخاً كبيراً، فلا يملك الشاعر إلا أن يردد إلى الماضي ليعوض من خلال حديثه عنه قصوره وعجزه الحالي، أما هي فلا ترى كبير قيمة في تغنيه بماضيه الحميد، يقول(53):

ألا صرمت مودتك الرواغ

وجد البيئ منها والوداع

وقالت: إنه شيخ كبير

فلج بها، ولم ترع امتناع

فأما أمسي قد راجعت حلمي

ولاح علي من شيب قناع

فقد أصل الخليل وإن نائي

وغب عداوتي كلاً جداع

وأحفظ بالمغيبية أمر قومي

فلا يسدى لدي ولا يضاع

ويطلب عمرو بن ثعلبة من زوجه ألا تسخر منه، وألا تزور عنه لشيخوخته، فهي تعلم أن الشباب إلى شيب، وأن لا شين ولا عار في المشيب، يقول(54):

وخطه الشيب، وبان عنه الشباب، وتقدم به العمر، وهو على حينه يدرك أن هذا التعطش للمرأة، والوصول إليها بات أمراً عسيراً وذلك لعجزه الجنسي، يقول الشمردل بن ضرار(47):

ألن لما علك المشيب

وأبصرت في العارضين القتيرا

وبان الشباب بلذاته

قولى وأصبحت شيخاً كبيراً

تطربت وأحتجت للغايات

هيئات حاولت أمراً عسيراً

ولا ريب أن من أهم الأسباب المؤدية إلى نفور الزوجة وازورها من زوجها الشيخ راجع إلى الحرمان الجنسي الذي قد تعاني منه لأنها تحب نظراءها من الفتيان كما تقول الزباء بنت علقمة الطائي(48):

إن الفتاة تحب الفتى

كحب الرعاة أتسق الكلا

وقد أشار الأفوه الأودي إلى هذا، عندما شعر بنفور زوجته وإعراضها، وذلك قوله(49):

ما بال عرسي لا تبش كعهدنا

لما رأيت سري تغير وانثني

ويثير اتهام بسباسة حنق امرئ القيس، الذي يرفض اتهامها له بعجزه الجنسي وعدم قدرته على إتيان النساء، ويكذب قولها مدلاً بقدرته على فعل ذلك، يقول(50):

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني

كبرت وأن لا يحسن السر أمثالي

كذبت فقد أصبى على المرء عرسه

وأمنع عرسي أن يزن بها الخالي

أما عبد الله بن سلمة الغامدي ففي قصيدته التي مطلعها(51):

ألا صرمت حبايلنا جنوب

ففرغنا ومال بها قضيبي

فيتحدث عن علو شأن محبوبته جنوب ويصف حسناتها وجمالها وأنها تفردت بذلك دون الغواني جميعاً، وأنه لم ير مثلاً في البلاد عفة وطيباً، ثم عاد ليحدثنا عن سخريتها منه لما علاه الشيب، وتقدمت به السن، حتى أنها أنكرته، ووصمته بالخيل والجنون، فلا يجد إلى الماضي المتخيل يلجأ إليه، وإلى الشجاعة يفخر بها يقول:

على ما أنها هزئت وقالت:

هنون، أجن؟ منشأ ذا قريب

فإن أ كبر فإني في لداتي

وعصر جنوب مقتبل قشيب

كان يتمتع بالشباب والحيوية والفتوة، ويعقد مقارنة بين صورة ذلك الماضي البهي، وهذا الواقع البئيس القاتم، أيام أن كانت الغواني يقبلن عليه ويرغبن فيه، ويعجلن إلى لقائه، ويستقبلنه بالترحاب، أما الآن فهن يُعرضن عنه، ويتحاشين رؤيته، ففيهن عنه ازورار، ولهن عنه تحول، وكأنه أجرب نُخْشَى عداوته، يقول الأسود مبينا وقع هذا كله على نفسه (57):

صَحَا سَكْرٌ مِنْهُ طَوِيلٌ بِرَيْبَا
تَعَاقِبُهُ لَمَّا اسْتَبَانَ وَجَرَبَا
وَأَحْكَمَهُ شَيْبُ الْقُدَالِ عَنِ الصَّبَا
فَكَيْفَ تَصَابِيهِ وَقَدْ صَارَ أَشْيَبَا
وَكَانَ لَهُ فِيمَا أَفَادَ حَلَا نِلٌ
عَجَلْنَ إِذْ لَأَقَيْنَهُ قُلْنَ مَرْحَبَا
فَأَصْبَحْنَ لَا يَسْأَلْنَهُ عَنِ مَا بِهِ
أَصْعَدَ فِي غُلُوِّ الْهَوَى أَمْ تَصَوَّبَا
طَوَامِحَ بِالْأَبْصَارِ عَنْهُ كَأَنَّمَا
يَرَيْنَ عَلَيْهِ جُلٌّ أَدْهَمَ أَجْرَبَا
فَالآنَ إِذْ هَارَلْتَهُنَّ فَإِن

يَقُلْنَ أَلَا لِمَ يَذْهَبُ الْمَرْءُ مَذْهَبَا
هذا وقد أكثر الشعراء الجاهليون من الحديث عن صدور الغواني عن الشَّيْبِ، وازورار الصبايا عن الشيوخ، وألحوا في تصوير ذلك وبيان وقعه على نفوسهم، وبخاصة إذا كان النفور والصدود من الزوجة، التي لم تعد تجد عنده (ما يجذبها إليه، أو يرغبها في البقاء عنده، وإدامة العشرة معه، فقد مضى حلو العيش، ولم يعد الشاعر بكفاء لها)⁽⁵⁸⁾، وتكثر المرأة من سخريتها من الرجل لما يعلوه الشيب، و تتقدم به السن، ويصبح شيخاً هرمًا، قد ضعفت بنيته، وهزل جسمه، وسقطت أسنانه، وتقوس ظهره، إلى غير ذلك من حالات الضعف التي تعتوره في شيخوخته⁽⁵⁹⁾.

وقد أخبرنا العليم بأدواء النساء عن صدودهن عن الرجال، حال المشيب أو قلة المال، أو حال اجتماعهما معاً، فالشيب مساو للفقير، وفي هاتين الحالتين تتمرد المرأة، ويتعالى صوتها ويشد جماحها، يقول علقمة الفحل⁽⁶⁰⁾:

فَإِن تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي
بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَيِّبُ
إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ
فَلَيْسَ لَهُ مِنْ وَدْهِنٍ نَصِيبُ
يُرِدْنَ تَرَاعَ الْمَالِ حَيْثُ عِلْمُهُ
وَشَرَحَ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبُ

ضعف عام ووهن مقعد:

لقد وصف الشاعر الجاهلي في شيخوخته ما هو عليه، وما

تَهَزَّاتُ عَرِيسِي وَاسْتَنْكَرْتُ

شَيْبِي، فَفِيهَا جَنَفٌ وَازْوِرَارُ

لَا تُكْثِرِي هُرْعاً وَلَا تَعْجِبِي

فَلَيْسَ بِالشَّيْبِ عَلَى الْمَرْءِ عَارُ

عَمْرِكَ، هَلْ تَدْرِينَ أَنَّ الْفَتَى

شَبَابُهُ ثَوْبٌ عَلَيْهِ مُعَارُ

وسخرية المرأة من الرجل المسن وزهدا فيه، يسبب له انكساراً نفسياً حاداً، يشعره بقسوة الخطب وشدته، فيقع بين قوتين قاسيتين لا ترحمانه، قوة الزمن التي تنتقص كل يوم بعضاً منه، وقوة المرأة الساخرة منه الزارية عليه، الهازئة به القالية له، التي لم تعد تقيم له وزنا بعد ما شاخ وهرم، ولم تعد العلاقة بينهما منسجمة، ولعل ذلك يعود إلى غياب التكافؤ العمري بينهما، مما يؤثر سلبيًا على استمرار التواصل فأخذت تنتقص من فحولته، وتعمط رجولته، وهو لا يملك إلا أن يطلب إليها الرفق به، وعدم الشماتة بحاله، يقول سمعان بن هبيرة⁽⁵⁵⁾:

وَهَارِئَةٌ مِنْ شَيْبَتِي وَتَحْتِي

وَطَوَّلَ فَعُودِي بِالْوَصِيدِ أَفْكَرُ

تَقُولُ فَنِي سَمْعَانَ بَعْدَ اعْتِدَالِهِ

وَبَعْدَ سَوَادِ الرَّأْسِ، فَالرَّأْسُ أَزْعَرُ

فَقُلْتُ لَهَا: لَا تَهْزِنِي إِنَّ قَصْرِكَ أَل

مَنِيَا، وَرَيْبُ الدَّهْرِ بِالْمَرْءِ يَغْدُرُ

فَكَمْ مِنْ صَحِيحٍ عَاشَ دَهْرًا بِنِعْمَةٍ

فَحَلَّ بِهِ يَوْمٌ أَعْرُ مُشَهَّرُ

فَصَارَ لِقَى فِي الْبَيْتِ لِأَيُّرُخِ الْفَنَاءِ

رَدِيًّا عَلَيْهِ كَأَبَّةً وَتَوَقَّرُ

ونحواً من هذا ما نجده عند عباد بن شداد اليربوعي، الذي ألمته زوجه لما سخرت منه، عندما بات عاجزاً عما كان يفعل أيام شبابه، وأصبح رهينة البيت لا يغادره، ولم تُبق الأيام منه سوى العظم الهش والجلد المترهل، فما كان منه إلا أن استرجع ماضيه بأمجاده وبطولاته، ليؤكد لها ولنفسه أن ذلك الماضي كامنٌ فيه، يقول⁽⁵⁶⁾:

يَا بؤْسَ لِلشَّيْخِ عَبَادِ بْنِ شَدَادِ

أَضْحَى رَهِينَةً بَيْتِ بَيْنِ أَعْوَادِ

وَتَهَزَّأُ الْعَرِيسُ مِنِّي أَنْ رَأَتْ جَسَدِي

أَحْدَبٌ لَمْ تَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ أَجْلَادِ

فَإِن تَرَيْتِي ضَعِيفاً قَاصِراً عَنِّي

فَقَدْ أَكْعَعُ عَنِّي عِدْوَةَ الْعَادِي

وَقَدْ أَفِيءُ بِأَثْوَابِ الرَّئِيسِ وَقَدْ

أَعْدُو عَلَى سَلْهَبِ اللُّوْحِشِ صَيَّادِ

ويعود الأسود بن يعفر النهشلي إلى ذكريات الماضي، أيام

وكنت أمشي على الرجلين مُتَدَلًّا
فصرت أمشي على ما تثبت الشجر
إذا أقوم عَجْتُ الأرض مُتَكِنًا
على البراجم حتى يذهب النفسُ
إنه يرسم أمام دهماء صورة مرعبة للهرم وللشيخوخة،
منطلقا من تضاد حاد قائم بين الشباب المنصرم الذي كان
يلذ فيه كل شيء، والشيخوخة الواهنة التي تقعد به عن
كل شيء.

ومن يرى أبا الطمحان القيني، يظنه لتقارب خطوه، واهتزاز
جسده، مقيدا وما هو كذلك، إنما هي الشيخوخة التي أوهنت
خطاه، وحنّت قناته، وطامنت هامته، يقول (64):

حنّتي حانبات الدهر حتى
كأنّي خاتل يذنو لصيد
قريب الخطو يحسب من رأيي

ولسنت مقيدا أني يقيد
وتتكرر الصورة التي يرسم فيها الشاعر انحناء قامته،
وتطامن هامته، وتقارب خطوه، كمن يخاتل الصيد، عند غير
شاعر فهذا ربيعة بن مقروم الضبي، يقول (65):

بل إن تربي شمطاً تفرع لمتي
وحنى قناتي وارقتي في مسحلي
ودلفت من كبر كأي خاتل

قنصاً، ومن يدبب لصيد يختل
ويشكو الشاعر ضعفه ووهنه، وزوال مكانته بين قومه،
وتولمه سخرية زوجه وتحدث في نفسه جرحا كبيرا، وتصدّد من
معاناته النفسية، فيتصاغر ولا يجد مفرا من الإقرار بعجزه،
يقول الحارث بن النورم اليشكري (66):

رعت ثمامة أنني قد سؤتها
ولقد أن لي أن أسوء وأكبر

إن الكبير إذا يشاف رأيتة
مقرنثبعا، وإذا يهان استنمرزا
وإذا ترحل في الرعية خلتة
كسلا وعز عليه أن يتحدرا
وإذا تراءى القوم شخصا خاله

شخصين، ثمت لم يكن أبصرا
أما دريد بن الصمة، فقد أرجع ما جرى له من ضعف
وهزال، وكبر وانكسار، إلى الزمن وفعله فيه، يقول (67):

أصبحت أذف أهداف المنون كما
يرمي الدريئة أدنى فوّه الوتر
في منصف من مدى تسعين من مئة
كرمية الكاعب الغدرا بالحجر

آل إليه من ضعف عام، ووهن فتك بصحته وعافيته، فخارت
القوى، وتهافت البنية، وتسلك هذا الوهن إلى سائر أنحاء
جسمه، فقد بات يعاني من تقوس في ظهره، وضعف في
بصره، وتقل في سمعه، وآلام في مفاصله، يقول عمرو بن
قميئة مصورا هيئة قيامه معتمدا مرة على راحتيه وأخرى على
عصاه، وقد شاخ ورمته بنات الدهر بسهامها، التي أعجزته
وأوهنت قوته (61):

كأنّي وقد جاوزت تسعين حجة
خلعت بها يوما عذار لجامي
على الراحتين مرة، وعلى العصا
أنوع ثلاثا بعدهن قيامي
رمتني بنات الدهر حيث لا أرى
فكيف بمن يرمى وليس برام
قلو أنها نبل إذا لاتقيتها

ولكنني أرمي بغير سهام
ويقول المخبل السعدي مخاطبا ولده الشاب، لعله يعطف
عليه، ويرأف بشيخوخته التي أعجزته، فقد انحنى ظهره،
وتقارب خطوه، وضعف بصره، فقد تركت السنون مياستها على
بنينه يقول (62):

فإن يك غصني أصبح اليوم ذابيا
وغصنك من ماء الشباب رطيب
فإني حنت ظهري خطوب تتابع
فمشبي ضعيف في الرجال دبيب
وما للعظام الرجفات من اللي
دواء وما للركبتين طيب
إذا قال صحبي يا ربيع ألا ترى

أرى الشخص كالشخصين وهو قريب
وعلى نحو من هذا ما نجده عند ذي الأصبع العدواني، فقد
أصبح شيخا كبيرا، كل بصره، ووهنت قواه، وانهد عزمه، فهو
لا يقوى على النهوض إلا إذا اعتمد على يديه أولا، وألقى بثقله
عليهما، وكأنما هو في حركته هذه، وهيئته التي آل إليها في
أثناء نهوضه وقيامه، يعجن الأرض، يقول (63):

أصبحت شيخا أرى الشخصين أزيعة
والشخص شخصين لما مسني الكبير
ما للكواعب يا دهماء قد جعلت

تزور عني وتطوي دوني الحجر
قد كنت فراج أبواب مغلقة
دب الرساء إذا ما حولس النظر
لا أسمع الصوت حتى استدير له
ليلا، وإن هو ناغاني به القمر

إِنَّ السَّيِّئِينَ إِذَا قَارَبْنَ مِنْ مِّنَةٍ

لَوَيْنَ مِرَّةً أحوالي على مرر

ويألم النمر بن تولب العكلي ألا يدعوه أحد باسمه، فالكل يدعوه شيخاً، ويحدث تصرف زوجه شرخاً في نفسه، فهي تحوز إليها أبناءها، وتصلح شأنهم، وتحرص على دفنهم ورعايتهم، في الوقت الذي لا تلقي له بالاً، بل يعزل وينام وحيداً، قد بدت سناسن عظامه، فهو في مسيس الحاجة إلى الدفاء والرعاية، وإذ ما كان يأمله المرء من طول العمر، يصبح هو الداء الذي لا دواء له، يقول (68):

لِعَمْرِي، لَقَدْ أَنْكَرْتُ نَفْسِي وَرَأَيْتِي

مع الشَّيْبِ أَبْدَالِي الَّذِي أَتَبَدَّلُ

وَتَسَمَّيْتِي شَيْخاً وَقَدْ كَانَ قَبْلَهُ

لِي اسْمٌ، فَلَا أُدْعَى بِهِ وَهُوَ أَوْلُ

وَزَهْدِي فَيَكْفِينِي الْيَسِيرَ وَإِنِّي

أَنَامُ إِذَا أَمْسَيْتِي وَلَا أَسْعَلُّ

وِظْلَعِي، وَلَمْ أَكْسُرْ، وَإِنَّ حَلِيلَتِي

تَحُوزُ بِنِيهَا فِي الْفِرَاشِ وَأَعَزَّلُ

فُصُولَ أَرَاهَا فِي أَيْمِي بَعْدَمَا

يَكُونُ كِفَافُ اللَّحْمِ أَوْ هُوَ أَجْمَلُ

يُحِبُّ الْفَتَى طُولَ السَّلَامَةِ وَالْغِنَى

فَكَيْفَ يَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ

ويخشى عروة بن الورد من الهرم شيخوخته المقبلة، التي ستدفع به إلى العصا ليعتمد عليها في سيره، لما يتحول إلى إنسان ضعيف عاجز، يشمت به أعداؤه، ويمله أهله، يقول (69):

أَلَيْسَ وَرَأَيْتِي أَنْ أَدِبَ عَلَى الْعَصَا

فَيَشَمَّتْ أَعْدَائِي وَيَسَامَنِي أَهْلِي

وشكا الأسود بن يعفر، أفة العمى التي ابتلي بها بعد أن

كبر وشاخ، فألمه ما آل إليه واقعه، فقد أصبح يهْدَى إلى الطريق، ويُقَادُ إليه كما تُقَادُ الدابة، بلا هواده أو رحمة، يقول (70):

لَقَدْ كُنْتُ أَهْدَى فَلَا أَهْدَى فَعَلَّمَنِي

حُسْنَ الْمَقَادَةِ أَنِّي أَفْقَدُ الْبَصْرَا

أَمْشِي وَأَتَّبِعُ جَنَاباً لِيَهْدِيَنِي

إِنَّ الْجَنِيْبِيَّةَ مِمَّا يَجْشُمُ الْعَدْرَا

على أن الشاعر الجاهلي لا يملك إلا أن يقر بالحقيقة الأزلية، وهي استحالة مطاولة الزمن، إن الداء الداء الذي لا براء منه، يكمن في طول العمر، ومرّ الأيام التي توهن القوى وتعجز الإنسان، فينهزم أمامها، يقول عمرو بن قميئة (71):

كَانَتْ قَسَاتِي لَا تَلِيْنُ لِغَامِرِ

فَأَلَانَ، هَا الْإِصْبَاحُ وَالْإِمْسَاءُ

وَدَعَوْتُ رَبِّي فِي السَّلَامَةِ جَاهِداً

لِيُصَحِّنِي، إِذَا السَّلَامَةُ دَاءٌ

ويقول عبيد بن الأبرص (72):

تَرَى الْمَرْءَ يَصْنُبُو لِلْحَيَاةِ وَطَوْلِهَا

وَفِي طَوْلِ عَيْشِ الْمَرْءِ أَبْرَحُ تَعْذِيبِ

فإنسان ليس صخراً ليصمد أمام الإمساء، وليس حديداً

ليقاوم الإصباح. فالزمن لا يقهر، والبقاء محال:

فِيَا دَهْرُ قَدْ كَفَأَسْجَحُ بِنَا

فَلَسْنَا بِصَخْرٍ، وَلَسْنَا حَدِيدَا (73)

إِقْصَاءَ مَقِيْتٍ وَعِزْلَةَ قَاتِلَةٍ:

تجاوز الشعراء الجاهليون الحديث عن الضعف الذي ينزل بالشيوخ، والوهن الذي يصيبهم، فيكاد أن يشل حيوياتهم، ويوقف حركتهم، تجاوزوا ذلك إلى الحديث عما يترتب على هذا الوهن، وذلك الضعف من عزلة قاتلة وإقصاء مقيت، يحدثان آلاماً نفسية حادة في دواخلهم تجعلهم منصرفين عن الآخرين إلى ذواتهم، يقول ساعدة بن جؤية مصوراً عزلته وانفراده (74):

وَسَنَانٌ لَيْسَ بِقَاطِظِ نَوْمَةٍ أَبَدَا

لَوْلَا عُدَاةَ يَسِيرِ النَّاسِ لَمْ يَقُمْ

فِي مَنْكِبِيهِ وَفِي الْأَصْلَابِ وَاهِنَةٌ

وَفِي مَفَاصِلِهِ عَمَزٌ مِنَ الْعَسَمِ

إِنْ تَأْتَهُ فِي نَهَارِ الصَّيْفِ لَا تَرَهُ

إِلَّا يَجْمَعُ مَا يَصْلَى مِنَ الْجَحْمِ

حَتَّى يُقَالَ وَرَاءَ الْبَيْتِ مُنْتَبِذَا

فَمُ، لَا أَبَا لَكَ، سَارَ النَّاسُ فَاحْتَرِمَ

فَقَامَ تَرْعُدُ كِفَاةً بِمِجْنَبِهِ

قَدْ عَادَ رَهْباً رَدِيّاً طَانِشَ الْقَدَمِ

وهذا دريد بن الصمة الفارس المقدم، والبطل المغوار، أيام الفتوة والشباب، حيث كان معقد آمال قومه، فهو الذي يقودهم في المعارك، ويحقق لهم الانتصارات على خصومهم، وينفس كرههم ويذود عن حماهم، ويصدرون عن رأيه، لما أقعدته الشيخوخة، وذهبت بقوته وصلابته، نبذه قومه وعزلوه، ورأوا أنه لم يعد قادراً على تلك المهام العظام التي كان ينهد لها، فاطرحوه وراء ظهورهم، وأقصوه عن ناديهم، بل وضعوا القيد في رجليه كيلا يذهب بعيداً على وجهه (75)، فأحدثت تلك العزلة وذلك الإقصاء ألماً شديداً في نفسه، ومعاناة بالغة شرخت ذاته، وكادت أن تفقده توازنه، فأمضه ذلك القيد وألمه هذا الحبس، فقال مصور شدة معاناته (76):

فِي مَنْزِلِ نَارِجِ مِ الْحَيِّ مُنْتَبِذِ

كَمَرِبِطِ الْغَيْرِ لَا أَدْعَى إِلَى خَبَرِ

كَأَنَّي خَرِبٌ جُرْتُ قَوَادِمَهُ

أَوْ جُئْتُهُ مِنْ بُغَاثٍ فِي يَدَيَّ هَصِيرٍ
يُمَضُّونَ أَمْرَهُمْ دُونِي وَمَافَقَدُوا
مَنِّي عَزِيمَةً أَمْرٍ مَا خَلَا كِبْرِي
وَنَوْمَةً لَسْتُ أَقْضِيهَا وَإِنْ مَثَعْتُ
وَمَا مَضَى قَبْلُ مِنْ شَأْوِي وَمِنْ عُمْرِي
وَإِنِّي رَأَيْتِي قَيْدٌ حُبِسْتُ بِهِ
وَقَدْ أَكُونُ وَمَا يُمَشَى عَلَيَّ أَثْرِي
ويشكو بحر بن الحارث الكلبى إهمال قومه له، فلم يعد
يدعى إلى ناديبهم، ولا هم يستشيرونه في أمورهم، ومله الأقربون
وتجنبه الأبعدون، وأصبح ملقى في البيت كالحلس لا نفع منه،
حتى أنه ملّ الحياة وتمنى الموت، يقول (77):
مَنْ عَاشَ خُمْسِينَ حَوْلًا بَعْدَهَا مِئَةً
مِنَ السَّيِّئِينَ وَأَضْحَى بَعْدَ يَنْتَظِرُ
وَصَارَ فِي الْبَيْتِ مِثْلَ الْحَلْسِ مُطْرِحًا
لَا يُسْتَشَارُ وَلَا يُعْطَى وَلَا يَنْزُرُ
مَلَّ الْمَعَاشَ وَمَلَّ الْأَقْرَبُونَ لَهُ
طُولَ الْحَيَاةِ، وَشَرُّ الْعَيْشَةِ الْكَدْرُ
وينفت عسكلان بن عواكن الحميري، آلامه في آهات
حزينة معبرة، فقد أودى الزمان بسمعه، وذهب الدهر ببصره،
ومات أتراه، وباد أمثاله، وبقي هو مطرحة كالحلس لا يبوح
بشيء، فقد اجتمعت عليه العلل والأوجاع، ونزلت فيه الأمراض
والأسقام، يقول (78):
إِذَا مَا الشَّيْخُ صَمٌّ فَلَمْ يَكَلِّمْ
وَأُودَى سَمْعُهُ إِلَّا يَدَايَا
فَذَاكَ الدَّاءُ لَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ
سَوَى الْمَوْتِ الْمُنْتَقَى بِالرَّزَايَا
شَهِدْتُ بِنَا مَعَ الْأَمْلَاكِ مَنَا
وَأَدْرَكْتُ الْمَوَاقِفَ فِي الْقَضَايَا
فَبَادُوا جَمِيعًا فَصِرْتُ جَلْسًا
صَرِيحًا لَا أَبُوحُ إِلَى الْخَلَايَا
أما زهير بن جناب، فقد بلغ من الهرم والضعف مرحلة
تهدل فيها حاجباه على عينيه، فلم يعد يبصر الكوكب المضيء
إلا إذا أخذ حاجبه بيمينه، وأنه لضعفه وهزاله وهرمه باتت
تضره ربة البيت بعمودها على قفاه، وأن النسوة بتن لا يخشينه
على أسرارهن، فهو هناك مطرح كمركب النساء لا يُخشى في
شيء، يقول (79):
أَلَا يَالْقَوْمِي لَا أَرَى النَّجْمَ طَالِعًا
مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا حَاجِبِي بِيَمِينِي
مُعْرَبِي، عِنْدَ الْقَفَا بَعْمُودِهِ
يَكُونُ نَكِيرِي أَنْ أَقُولَ ذَرِينِي

أَمِينًا عَلَى سِرِّ النَّسَاءِ وَرَبِّمَا
أَكُونُ عَلَى الْأَسْرَارِ غَيْرَ أَمِينٍ
وَلِلْمَوْتِ خَيْرٌ مِنْ حِدَاجٍ مُوطًا
مَعَ الظَّنِّ لَا يَأْتِي الْمَحَلَّ لِحِينٍ
ويحزن قشيراً العبيدي إهمال قومه له، وإطراحهم إياه، فلا
يكون معهم في وفد، ولا يشركهم في حفل، ولا يظعن معهم
لمشهد، حتى بلغ به الأمر أن يتسقط أخبار القوم من السفلة
الأوغاد، يقول (80):
كَفَى حَزْنًا أَنْ لَا أُرِدَّ مَطِيئِي
لِرِخْلِي، وَلَا أَعْدُو مَعَ الْقَوْمِ فِي وَفْدٍ
وَإِنْ أَفْرَعْتُ قُرْيَانُ نَجْدٍ وَنَوْرَتُ
مِنَ الْبَقْلِ لَمْ أَنْظُرْ بِعَيْنِي فِي نَجْدٍ
وَأَنْ أَسْأَلَ الْأَوْغَادَ مَا كَانَ شَأْنَهُمْ
وَلَا أَشْهَدُ الشُّورَى لِعَيِّي وَلَا رُشْدُ
وَقَدْ كُنْتُ أُعْطِي السَّيْفَ فِي الرَّوْعِ
حَقَّهُ حَيَاءً إِذَا جَرَدْتُ سَيْفِي مِنَ الْغَمِّدِ
ويبقى دريد بن الصمة الفارس الصنديد، قعيد البيت بعد أن
أصبح رأسه أبيض كالثغام، يطيف به الولدان، ويضحك عليه
الصغار، وكأنه القرد مبعث لعب الأطفال ومدار سخريتهم
وعبتهم يجتمعون حوله ويهزؤون منه، فهل بعد هذا التصوير
من بلاغة أو براعة، يقول دريد (81):
فَإِنْ يَكُ رَأْسِي كَالثَّغَامَةِ نَسَلُهُ
يَطِيفُ بِي الْوُلْدَانُ أَحْدَبُ كَالْقَرْدِ
رَهِينَةً قَعْرِ الْبَيْتِ كُلِّ عَشِيَّةٍ
كَأَنِّي أَرْقَى أَوْ أَصَوَّبُ فِي الْمَهْدِ
فَمَنْ بَعْدَ فَضْلِ مَنْ شَبَابٍ وَقُوَّةٍ
وَشَعْرٍ أَثِيثٍ حَالِكِ اللَّوْنِ مُسَوِّدِ
وكذلك ظل سمعان بن هبيرة لا يبرح فناء البيت:
فَصَارَ لِقَى فِي الْبَيْتِ لَا يَبْرُحُ الْفَنَّا
رَدِيًا عَلَيْهِ كَأَبَّةٍ وَتَوَقَّرُ (82)
ولا شك أن الأعداء يسرون لهوان الشيخ وهرمه وتقدم سنه،
ويفرحون لفقده القدرة على المواجهة والتحدي وبخاصة إذا كان
بطلا مقداماً أو فارساً مغوراً أو شخصية لها حضورها، فإذا
كان الأذنون يسأمون فالأعداء يشمتون، يقول عروة بن
الورد (83):
رَهِينَةً قَعْرِ الْبَيْتِ كُلِّ عَشِيَّةٍ
يَطِيفُ بِي الْوُلْدَانُ أَهْدَجُ كَالرَّالِ
ويقول أنس بن مدرك الخثمي (84):
وَيَأْدَى بِهِ الْأَدْنَى وَيَرْضَى بِهِ الْعِدَا
إِذَا صَارَ مِثْلَ الرَّالِ أَحْدَبًا أَحْضَعًا

الشقاء؟ إنه حتى في شيخوخته يحاول أن يدخل إلى نفوسهم السرور والبهجة، وهم يتمنون له الهلاك والفناء، ولهذا ارتأى زهير بن جناب أن موت المرء وفيه بقية من حياة، وبعض من قوة، خير له من أن يصبح كلا على غيره، يقول (89):

فَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَلْفَتِّ فَلْيَهْلِكَنَّ وَبِهِ بَقِيَّةُ
مِنْ أَنْ يُرَى تَهْدِيَهُ وَلَنْ دَانَ الْمُقَامَةَ بِالْعَشِيَّةِ
ويصبح الأسود بن يعفر النهشلي، على يقين تام أن نيل الخلود محال، وأنه لا شك سالك طريق من سبقوه، وأن الموت لا يقبل منه مالا طريفا ولا تالدا، ولن يرضى منه دون نفسه التي بين جنبيه بديلا، فقد أهلك الملوك الأقوياء، والجبابة الأشداء، فلا يملك الأسود _عندها_ إلا أن يسكب دمه على ذكريات الشباب المنصرم، وأن (يرحب بالموت ترحيبا عجيبا مبنيًا على اليقين والأيمان) (90) يقول الشاعر (91):

نَامَ الْخَلِيِّ وَمَا أَسْرَى رُقَادِي
وَالهَمُّ مُخْتَصِرٌ، لَدَيْ وَسَادِي
مِنْ غَيْرِ مَا سَقَمَ وَلَكِنْ شَفَنِي
هَمَّ أَرَاهُ قَدْ أَصَابَ فُوَادِي
وَمِنْ الْحَوَادِثِ، لَا أَبَالِكَ أَنْسِي
ضُرِبَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِالْأَسْدَادِ
لَا أَهْتَدِي فِيهَا لِمَوْضِعِ تَلْعَةٍ
بَيْنَ الْعِرَاقِ وَبَيْنَ أَرْضِ مِرَادِ
وَلَقَدْ عَلِمْتُ سِوَى الَّذِي نَبَأْتَنِي
أَنْ السَّبِيلَ، سَبِيلُ ذِي الْأَعْوَادِ
إِنَّ الْمَنِيَّةَ وَالْحَتُوفَ كِلَاهُمَا
يُوفِي الْمَخَارِمَ، يَرْفُئَانِ سَوَادِي
لَنْ يَرْضِيَا مِنِّي وَفَاءَ رَهِينَةٍ
مِنْ دُونِ نَفْسِي، طَارْفِي وَتِلَادِي
مَاذَا أَوْمَلُ بَعْدَ آلِ مُحَرَّقِ

تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ
إذن فلا منجاة من الموت، ولا قدرة للإنسان على مطاولة الزمن، فما يطول عمر الإنسان إلا للعتة والشقاء والعناء، ويظل هدفا لريب المنون، و عرضة للأوصاب والأوجاع، والأمراض والأسقام التي تتكالب على جسده، وتهدي بنيانه، فإلا والله ما من سلامة (92) فالموت يخترم الإنسان شابا فتيا أو شيخا هرما، فله عليه رقيب لا فكاك له منه، يقول الأعشى (93):

لَعَمْرُكَ مَا طَوَّلَ هَذَا الزَّمَنُ
عَلَى الْمَرْءِ إِلَّا عَنَاءَ مَعَنٍ
يَظَلُّ رَجِيمًا لِرَيْبِ الْمُنُونِ
وَلِلسَّقَمِ فِي أَهْلِهِ وَالْحَزَنِ

رَهِينَةَ قَعْرِ الْبَيْتِ لَيْسَ يُرِيحُهُ

لَقِيَ ثَاوِيًّا لَا يَبْرُحُ الْمَهْدَ مَضْجَعًا
ويبلغ الأمر غايته من القسوة، إذا ما ارتحل الأبناء وخلفوا الشيخ وراءهم وحيداً، ليهلك فهذا أوس بن حارثة بن لأم، قد ذهب سمعه وعقله، وكان سيد قومه وفيه بيتهم، قد ارتحل بنوه وتركوه في عرصتهم حتى هلك فيها ضيعة، وهم يسبون بذلك إلى اليوم وفي ذلك يقول الأسحم بن الحارث (85):

أَتَانِي بِالْمَحَلَّةِ أَنْ أَوْسًا
عَلَى شَطْنَانَ مَاتَ مِنَ الْهَرَمِ
تَحَمَّلَ أَهْلُهُ وَاسْتَوْدَعُوهُ
خَسِيًّا مِنْ نَسِيحِ الصَّوْفِ بَالٍ
تَظَلَّ الطَّيْرُ تَغْفُوهُ وَقُوْعًا
أَلَا بُؤْسَ لِلشَّيْخِ الْمُدَالِ

استحالة الخلود وتمني الموت

أدرك الشاعر الجاهلي لما سئم الحياة (86) أن الخلود مستحيل، وأن البقاء مطلب لا يمكن تحقيقه، وأن الشيخوخة قد فتت في عضده، وأوهنت قوته، وأن طول الحياة في مثل هذه الحال لا يعني إلا الشقاء والعناء، أدرك الشاعر الجاهلي هذا كله، ولذلك فلا مخلص من هذه الشيخوخة المقعد والهرم المضني سوى الموت، فرأى فيه منقذا ومخلصا، فأخذ يتمناه ويستعجل وقوعه، يقول حاطب بن مالك (87):

وَلِلْمَوْتِ خَيْرٌ لِأَمْرِي مِنْ حَيَاتِي
يَدِبُ دَبِيبًا فِي الْمَحَلَّةِ كَالْقِرْدِ
فَلَوْ أَنَّ شَيْئًا نَالَ خُلْدًا لَنَا لَهُ
حَلِيفُ النَّدَى عَمْرُو سَلِيلُ أَبِي الْجَعْدِ
فَقَدْ كَانَ سَبَاقًا إِلَى كُلِّ غَايَةٍ
يُبَادِرُ فِتْيَانَ الْعَشِيرَةِ بِالْحَمْدِ

ويرى المستوغر بن ربيعة أن لا دواء مما هو فيه إلا الموت، فقد فقد جل حواسه، ولم يعد له من دور إلا ملاعبة أحفاده الذين يتمنون لو أن سقوه السم الزعاف، وتخلصوا من هذا العبء الثقيل، يقول بنفسه عن بعض هممه (88):

إِذَا مَا الْمَرْءُ صَمٌّ فَلَمْ يَنْجَاحِي
وَأُودَى سَمْعُهُ إِلَّا نِدَايَا
وَلَاعَبَ بِالْعَشِيِّ بَنِي بَنِيهِ
كَفَعَلَ الْهَرَّ يَحْتَرِشُ الْعِظَايَا
يُلَاعِبُهُمْ وَوَدَّوْا لَوْ سَقَوْهُ
مِنَ الذِّفَانِ مُتْرَعَةً مَلَايَا
فَذَاكَ الْهَمُّ لَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ

سِوَى الْمَوْتِ الْمُنْطَقِ بِالْمَنَايَا
ليس في الموت راحة من هذه المعاناة؟ وخلاص من هذا

وَمَا لِكَ أَهْلِ يُجِنُّوْهُ

كَآخَرَ فِي قَفْرَةٍ لَمْ يُجِنُّ

وَمَا إِنْ أَرَى الدَّهْرَ فِي صَرْفِهِ

يُعَادِرُ مِنْ شَارِحٍ أَوْ يَفْسُنُ

فَهَلْ يَمْنَعُنِي ارْتِيَادِي الْبِلَا

دَ مِنْ حَذْرِ المَوْتِ أَنْ يَأْتِيَنِي

أَلَيْسَ أَخُو المَوْتِ مُسْتَوْثِقًا

عَلَيَّ وَإِنْ قُلْتُ قَدْ أَنْسَأَنُ

عَلَيَّ رَقِيبٌ لَهُ حَا فِظٌ

فَقُلْ فِي امْرِي عِغْلِقِ مُرْتَهَنُ

ويرى جلييلة بن كعب الجعفي، أنه من الجهالة أن يطمح المرء في طول العمر، وأن يطمع في المزيد من الحياة، وقد شارف على المئة، وكيف له أن يؤمل البقاء وقد ارتحل من ارتحل من آباءه وأجداده وأقربائه؟ فما هذا العمر وإن طال سوى أيام قلائل يقول (94):

وَإِنْ إِمْرَعًا قَدْ عَاشَ تَسْعِينَ حِجَّةً

إِلَى مِئَةِ يَرْجُو الخُلُودَ لَجَاهِلُ

يُؤْمَلُ أَنْ يَبْقَى وَقَدْ مَاتَ ذُو النَّدَى

أَبُوكَ، وَأَوْدَى ذِي الحِمَالَةِ وَإِلُ

وَجَارُ الصَّفَا والأَرْقَمَانِ كِلَاهُمَا

فَكَيْفَ تُرَجَّى الخُلُودُ؟ أَمْكَ هَابِلُ

فَلَا تُرَجُّوْ عُمْرًا بَعْدَ مَنْ فَادَ إِنَّمَا

بِقَاوِكَ فِي الدُّنْيَا لِيَالٍ قَلَائِلُ

وهذا كعب بن ردة النخعي قد عاش حتى سئم العيش، وهلك أثرابه وفني أسنانه، فتمنى الموت واستعجل الأجل، يقول كعب (95):

لَمْ يَبْقَ يَا أَسْمَاءُ مِنْ لِدَاتِي

أَبُو بَنِيْنٍ لَا وَلَا بَنَاتِ

وَلَا عَقِيْمٌ عَزِيْرٌ ذِي ثَبَاتِ

مِنْ مَسْقَطِ الشَّخْرَالِي الْفُرَاتِ

إِلَّا يُعَدُّ اليَوْمَ فِي الأَمْوَاتِ

هَلْ مُشْتَرٍ أْبِيْعُهُ حَيَاتِي

ويشكو نهشل بن حري قسوة الزمن وصروف الدهر، وقلب السنين، و اليأس من مطاولة الزمن، واستحالة الخلود، فكلمنا ظن أنه أفنى سنة إذ بها هي التي تفنيه، فهي تتجدد وتعود، وهو يشيخ ويهرم، يقول (96):

وَكَمْ قَاسَيْتُ مِنْ سَنَةٍ جَمَادِ

تَعْضُ اللَّحْمَ مَا دُونَ العِرَاقِ

إِذَا أَفْنَيْتُهَا بُدِلْتُ أَخْرَى

أَعْدُ شُهُورَهَا عَدَدَ الأَوَاقِ

فَأَفْتَنِي السَّنُونَ وَلَيْسَ تَفْنَى

وَتَعْدَادُ الأَهْلَةَ وَالْمُحَاقِ

أما عبد المسيح الغساني فقد حلب الدهر أشطره، ونال من الدنيا فوق ما كان يتمنى من الشرف والسؤدد، وعلو المكانة ورفعة المنزلة، فقد أدرك كل ما أراد بل فوق ما يريد، إلا أنه وجد أن لا سبيل إلى الخلود، يقول (97):

حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطَرُهُ حَيَاتِي

وَنَلْتُ مِنَ المُنَى فَوْقَ المَزِيدِ

وَكَافَحْتُ الأُمُورَ وَكَافَحْتَنِي

وَلَمْ أَحْفَلْ بِمُعْفِيَةٍ كَوُودِ

وَكَدْتُ أَنَالَ فِي الشَّرَفِ الثَّرِيَا

وَلَكِنُّ لَا سَبِيلَ إِلَى الخُلُودِ

فالشاعر الجاهلي أدرك غاية الإدراك أن لا منجاة من الموت، وأن لا لذة في سن الشيخوخة، وأنها تستوي مع الموت، إن لم يفضلها الموت

يَا لَيْتَ شِعْرِي الأَمْنَجَى مِنَ الهَرَمِ

أَمْ هَلْ عَلَى العَيْشِ بَعْدَ الشَّيْبِ مِنْ نَدَمِ (98)

فلا (نجاة لامرء من منيته) (99) وأنه لا خلود (لباذل منتكف) (100) أو (لباذل منكرم) (101) كما يقول أبو كبير الهذلي، فلا يحظى بالخلود على الأرض كائن حي، ولا ينال البقاء أحد، كما قال ساعدة بن جؤية الهذلي (102)

تَاللهِ يَبْقَى عَلَى الأَيَّامِ ذُو حَيْدِ

أَذْفَى صَلُودٍ مِنَ الأَوْعَالِ ذُو خَدَمِ

فالبقاء على الأرض للفناء، ولذا (لو كان يشري الموت لاشتريته) (103)

وخلاصة القول إن الشاعر الجاهلي شعر بالندم والحسرة على شبابه المنصرم، وسكب على ذلك دموعه الغزار، وزفر أناته الحرى الساخنة، ورأى في الهرم والشيب (رسول الردى، وعنوان الفساد) (104) ولم يعد أمامه للاحتفاظ بتوازنه سوى استحضار ذلك الماضي المجيد، والتغني بتلك الفعال الحميدة فقد كان بطلا في فروسيته، وبطلا في كرمه، وبطلا في لذته، مقبلا على الحياة، مستشعراً حلاوتها وطراوتها، فيقدم صورة لمغامراته التي تبدو وكأنها نوع من الإغراق في حلم اليقظة) (105).

وآلم الشاعر الجاهلي أشد الألم نفور الزوجة وسخريتها منه لما حلت به الشيخوخة ونزل به الهرم، وصاحبه العجز الجنسي، وأقعدته السن، وشرخ نفسه صدود الحسان وازورار الغواني عنه، ولعل أشد ما أمضه وعناه، إقصاء الأهل له وإفراده عنهم، فلا يحضر ناديهم ولا بشر كههم في أمرهم، فقد تحاشا الأقربون، وتجنبه الأبعدون، بل زاد الطين بلة أنه قيد

وهواجسه، وواقعيته في تصوير انفعالاته وأحاسيسه، في أشعاره بصدق بالغ، وعاطفة متقدة فيها الكثير من الشعور بالمرارة والقسوة، والضعف والانكسار، فكشف بهذا عن الإنسان الجاهلي في موقفه من الزمن، وأبان عن معاناته النفسية تجاه النهاية الحتمية.

وحبس أحياناً بدعوى الخوف من أن يهيم على وجهه، فبقي أدبار البيوت كالحلث الملقى أو الحدج المنهدم فأذاه ذلك كله أشد الأذى، وألزمه صراعاً نفسياً حاداً أيقن معه استحالة الخلود، فتمنى الموت ليكون فيه خلاصه من معاناته.

وقد استطاع الشاعر الجاهلي أن يعبر عن تألمه من الهرم وشكواه من الدهر وكراهيته للشيب والشيخوخة، وعن معاناته

الهوامش

- (29) المعمرون، 99
 (30) شرح ديوان الحماسة، 2:1132.
 (31) ديوان عمرو بن قميئة، 48 الأمم: العظيم والصغير وهي من الأضداد، وهنا يقصد الصغير، ميعة الشباب: أوله، العصم: الوعول، اللما: جمع لمة، مألّم بالمنكب من الشعر.
 (32) المعمرون، 43
 (33) معجم الشعراء، 202 الأدم: البيض.
 (34) المعمرون، 41 وزعتها: كفتها ورددتها، سبل: طائفة من الرماح.
 (35) ديوان دريد بن الصمة، 125.
 (36) المعمرون، 29 القرن: الخصم، الثمل: السكر، الواهن: العاجز، الضعيف، نفست: فرجت.
 (37) المعمرون، 66 الطمر: الفرس الجواد، الشظا: عظم لاصق بالركبة، الأحوذى: السريع الخفيف، القرن: الخصم.
 (38) المعمرون، 55 لده: خصمه، عرد: هرب، النكيس: الضعيف، الأوق: النقل والشدة.
 (39) ديوان الأسود بن يعفر النهشلي، 21.
 (40) ديوان الأسود بن يعفر النهشلي، 46.
 (41) الربيع بن ضبيع، 47.
 (42) الأصمعيات، 62 رعي الشباب: أوله، صوار قطيع من البقر، الجو: ما انخفض من الأرض، الغرة: الغفلة، السوام: الإبل السائمة، تزوع: تفرق، لتودع: لتترك، تقدح: من القدح وهو الرمي بالفحش وسوء القول، أحجل: أستر.
 (43) المعمرون، 124
 (44) طبقات فحول الشعراء، 1:330
 (45) المفضليات، 236 الخطيطة: أرض لم تمطر بين أرضين ممطورتين، شبه بها رأسه لأنه لا شعر فيه، الصواب: بيض القمل، لم يستكن: لم يجد شعراً يأوي إليه.
 (46) أمالي القالي، 2:170 بحري: ينقص
 (47) حماسة البحري، 315
 (48) عيون الأخبار، 4:48
 (49) الطرائف الأدبية، 6.
 (50) ديوان امرئ القيس 159
 (51) المفضليات، 103. هنون: جمع هن وهو كناية عن إنسان، لداتي: أمثالي، قشيب: جديد، الإصر: الميثاق، الخشيب: الحاد المصقول.
 (1) شعر أوس بن حجر، 305
 (2) الزمن عند الشعراء قبل الإسلام، 162
 (3) الإنسان في الشعر الجاهلي، 256
 (4) الشيب والشباب في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي، 49
 (5) الفاضل، 73
 (6) العقد الفريد، 2:352
 (7) انظر العلاقات الزوجية في الشعر الجاهلي، 100
 (8) نهاية الأرب، 2:27
 (9) ديوان بشر بن أبي خازم، 139
 (10) ديوان امرئ القيس، 217
 (11) ديوان عبيد بن الأبرص، 27
 (12) أشعار العامريين، 70
 (13) ديوان الهذليين، 1:191
 (14) انظر: نهاية الأرب، 2:24، البيان والتبيين، 2:333، العقد الفريد، 2:218.
 (15) الفاضل، 72
 (16) ديوان امرئ القيس، 265
 (17) الإنسان في الشعر الجاهلي، 263
 (18) البيان والتبيين، 2:378
 (19) الفاضل، 27 وانظر البيان والتبيين، 2:387، نهاية الأرب، 2:24.
 (20) ديوان ذي الأصبع العدواني، 33 البراجم: جمع برجمة وهي مفاصل الأصابع كلها. وانظر ديوان ابن مقبل، 72.
 (21) الإنسان في الشعر الجاهلي، 256
 (22) ديوان عدي بن زيد، 113 عصرة: ملجأ ومنجاة
 (23) ديوان عدي بن زيد، 85
 (24) ديوان عمرو بن قميئة، 40
 (25) الإنسان في الشعر الجاهلي، 257
 (26) الإنسان في الشعر الجاهلي، 261
 (27) ديوان سلامة بن جندل، 119 أودى: هلك، الشأو: السبق، اليعاقب: جمع يعقوب، وهو ذكر الحجل، الرعايبب: جمع رعبوية، وهي الجارية الحسنة البيضاء.
 (28) ديوان عدي بن زيد، 123

- (52) ديوان عبيد بن الأبرص 132 فظت: غلظت، مطت: تثت ومدت كثيرا، القرون: الذوائب، تزدهيني: تستخف بي، يغنيك: يرضيك، فيبني: ففارقي.
- (53) المفضليات، 186 لج: تمادى، ناني: بعد عني، جداع: وخيم، لايسدى: لا يضاع.
- (54) 54. المعمر، 42 جنف: ميل.
- (55) المعمر، 65 أزر: أصلع، الرذي: من أثقله المرض والضعف من كل شيء.
- (56) المعمر، 73 تهزأ: تستخف، أكعكع: أذفع، سلهب: سريع.
- (57) ديوان الأسود بن يعفر النهشلي، 20 القذال: جماع مؤخر الرأس، الجل: ما تغطى به الدابة لتصان.
- (58) الخوف في الشعر العربي قبل الإسلام، 176.
- (59) انظر: ديوان امرئ القيس، 28، ديوان الهذليين، ، ديوان عبيد بن الأبرص، 108، ديوان الأسود بن يعفر النهشلي، 49، معجم الشعراء، 202، طبقات ابن سلام، 193، المفضليات: 34، المعمر، 72، 73، 75، حماسة البحر، 35: 307، شعر بني تميم في الجاهلية، 135، أشعار العامريين الجاهليين، 70.
- (60) ديوان علقمة الفحل، 35.
- (61) ديوان عمرو بن قميئة، 44.
- (62) شعر بني تميم في الجاهلية، 121.
- (63) ديوان ذي الأصبع العدواني، 33.
- (64) أمالي المرتضى: 1: 185.
- (65) الأغاني 91: 22.
- (66) المعمر، 99 يشاف: يزين، المقرن: نشط، استزمر: تصاعر.
- (67) ديوان ريد بن الصمة، 66 الدريئة: حلقة لتعلم الرمي والطعن، الفوقة: مكان الوتر من السهم، الخرب: ذكر الحبارى الخصر: البارد، المرة: قوة الخلق وشدته.
- (68) المعمر، 79.
- (69) ديوان عروة بن الورد، 171.
- (70) ديوان الأسود بن يعفر النهشلي، 37.
- (71) ديوان عمرو بن قميئة، 204.
- (72) ديوان عبيد بن الأبرص، 27.
- (73) ديوان عمرو بن قميئة، 188.
- (74) ديوان الهذليين، 192: 1 العسم: بيبس في الرسغ تعوج منه اليد والقدم، الرذي: من أثقله المرض والضعف من كل شيء.
- (75) الأغاني، 25: 10.
- (76) ديوان دريد بن الصمة، 66 العير: الحمار، الخرب: ذكر الحبارى، جزت: قصت، هصر: حيوان مفترس.
- (77) المعمر، 70.
- (78) الإصابة، 3: 105.
- (79) أمالي المرتضى: 1: 174 حداج: مركب النساء.
- (80) شعراء بني قشير في الجاهلية، 43.
- (81) ديوان دريد بن الصمة: 54 الثغامة: نبت أبيض، أحذب: الحدب: خروج الظهر ودخول البطن والصدر، أثيث: غزير، طويل.
- (82) المعمر، 65.
- (83) ديوان عروة بن الورد، 114 الرأل: ولد النعام.
- (84) المعمر، 42.
- (85) المعمر، 46.
- (86) ديوان زهير بن أبي سلمى، 86.
- (87) المعمر، 37.
- (88) شعر بني تميم في الجاهلية، 46 ندايا: ما ينادى به، يحترش: يصيد، العظايا: جمع عظاية وهي دويبة صغيرة، الذيفان: السم الناقع.
- (89) ديوان زهير بن جناب، 117.
- (90) المفضليات، 216.
- (91) المفضليات، 216 الخلي: الخالي من الهموم، شفني: أهزني، مراد: قبيلة يمانية، ذو الأعواد: أراد الموت، المخارم: جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل.
- (92) ديوان لبيد بن ربيعة، 45.
- (93) ديوان الأعشى، 65.
- (94) المعمر، 92.
- (95) حماسة البحر، 146.
- (96) حماسة البحر، 134 سنة جماد: سنة شديدة، العراق العظم.
- (97) المرصع، 95، أمالي المرتضى، 1: 19.
- (98) ديوان الهذليين، 1: 191.
- (99) المعمر، 29.
- (100) ديوان الهذليين، 2: 104.
- (101) ديوان الهذليين، 1: 191.
- (102) ديوان الهذليين، 1: 191 ذو حيد: ذو أنابيب ملتوية في قرونه، أدفى: في قرنه حدب، صلود: يضرب الصخرة برجله فتسمع لها صوتا، ذو خدم: أي أعصم أي ما كان في يديه بياض.
- (103) المعمر، 96.
- (104) نهاية الأرب، 2: 27.
- (105) الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي، 10.

المصادر والمراجع

- ابن مقبل، ديوانه، عني بتحقيقه عزة حسن، 1962، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق.
- الأسدي، بشر بن أبي خازم، ديوانه، عني بتحقيقه عزة حسن، 1995، دار الشرق العربي، بيروت. حلب سوريا.
- الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ت356 هـ، تحقيق عبد الستار فراج، 1957، دار الثقافة، بيروت.
- الأعشى الكبير، ديوانه، شرح وتعليق محمد محمد حسين، دار النهضة العربية، بيروت.
- امرئ القيس، ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف مصر.
- الأندلسي، ابن عبد ربه، ت328هـ، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، 1940، دار الفكر.
- البحرتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد، الحماسة، ت283هـ، ضبطه وعلق حواشيه، كمال مصطفى، 1929، المطبعة الرحمانية، الطبعة الأولى.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ت255هـ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- الجشمي، دريد بن الصمة ديوانه، جمع وتحقيق وشرح، محمد خيرى البقاعي، 1981، دار قتيبة، دمشق.
- جليل، حسن محمد، الخوف في الشعر العربي قبل الإسلام، منشورات دار دلجة، 2007، عمان، الطبعة الأولى.
- الجمحي، محمد بن سلام، ت231هـ، طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر. مطبعة المدني القاهرة.
- ديوان سلامة بن جندل، تحقيق فخر الدين قباوة، 1968، نشر وتوزيع المكتبة العربية. حلب الطبعة الأولى.
- ذو الأصبغ العدواني، ديوانه، جمعه وحققه عبد الوهاب محمد علي العدواني ومحمد نايف الدليمي، 1973، مطبعة الجمهورية.
- زهير بن أبي سلمى، ديوانه، دار صادر، بيروت.
- زيتون، عبد الغني، 1986، الإنسان في الشعر الجاهلي، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق.
- السيجستاني، أبو حاتم، ت250هـ، المعمرون والوصايا، تحقيق عبد المنعم عامر، 1968، دار الكتب العربية، مصر.
- شرح ديوان الحماسة، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، 1991، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى.
- الشريف المرتضى، أبو القاسم علي بن الحسين، أمالي المرتضى، ت436هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، 1972، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الثانية.
- شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين، دراسة تحليلية، محمود عبدالله الجادر، 1979، دار الرسالة للطباعة، بغداد.
- شعر تميم في العصر الجاهلي، جمع وتحقيق عبد الحميد المعيني، 1982، منشورات نادي القصيم الأدبي، السعودية.
- شعراء بني قشير في الجاهلية والإسلام حتى آخر العصر الأموي، الفيصل، عبد العزيز، 1978، مطبعة عيسى الحلبي.
- الشيب والشباب في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي، هيبه، عبد الرحمن محمد، 1982، الهيئة المصرية للكتاب.
- الصانع، عبد الإله، الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.
- العبادي، عدي بن زيد، ديوانه، تحقيق وجمع. محمد جبار المعبيد، 1965، دار الجمهورية، بغداد.
- عبد الكريم، إبراهيم يعقوب، 1986، أشعار العامريين، الجاهليين، دار الحوار، اللاذقية، الطبعة الأولى.
- عبيد بن الأبرص، ديوانه، تحقيق وشرح حسين نصار، 1957، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الأولى.
- عروة بن الورد، ديوانه، شرح ابن السكيت. تحقيق عبد المعين الملوح، 1966، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق.
- علقمة الفحل، ديوانه، بشرح الأعلام الشنتمري، تحقيق لطفي الصقال ودرة الخطيب، 1969، دار الكتاب العربي، حلب الطبعة الأولى.
- عمر بن قميئة، ديوانه، عني بتحقيقه حسن كامل الصيرفي، 1997، معهد المخطوطات العربية. الطبعة الثانية.
- الفاضل، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق عبد العزيز الميمني، 1956، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة الطبعة الأولى.
- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، إعداد وتقديم، محمد المرعشلي، 1997، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت. الطبعة الأولى.
- القالبي، أبو علي، الأمالي، ت356هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- القيسي، نوري حمودي، ديوان الأسود بن يعفر النهشلي، وزارة الثقافة والإعلام الجمهورية العراقية، 1970.
- الكلبي، زهير بن جناب، ديوانه، صنعة محمد شفيق البيطار، 1999، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- لبيد بن ربيعة العامري، ديوانه، حققه وقدم له إحسان عباس، 1962، الكويت.
- مجدي الدين المبارك بن محمد المعروف بابن الأثير ت606هـ، المرصع، تحقيق إبراهيم السامرائي، 1971، مطبعة الإرشاد. بغداد.
- المرزباني، أبو عبد الله، ت384هـ، معجم الشعراء، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1960.
- المفضل الضبي، المفضليات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، بيروت الطبعة السادسة.
- النويري، شهاب الدين، ت733هـ، نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي مصر.
- الذهليين، الديوان، نسخة مصورة عن دار الكتب، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965.

Greyness and Sings of Old Age in the Pre-Islamic Poetry

*Hamdi Mansour**

ABSTRACT

This study tackles the topic of greyness and the sings of old age pertinet to acertain person in the pre-Islamic poetry and the stand of the poets of this period towards them.

It is constituted of a preface and five sections namely:

Feeling sorrow towards youthfulness of the past, the attitude of contempt on part of the wife towards old age and aged poet ,his attitude towards general weakness and helplessness and the feeling of solitude and at last his wish to pass away because every living person is destined to die and death is way out.

The pre-Islamic poets could express these attitudes very lively and vividly in their works.

Keywords: Greyness, Old Age, Pre-Islamic Poetry.

• Faculty of Arts, University of Jordan. Received on 13/3/2012 and Accepted for Publication on 11/11/2012.